شجرة عيد الميلاد

قصة مهدية

بقلم عبد الغفار المكاوي

— مهداة الى أخي يوسف الشاروني —

« .. يا جدي العزيز . ما أشد حنيني اليك . منذ ان رحلت عن قريتنا العزيزة ، وعن بيتنا القديم ، وأنا افكر في العودة اليك . لم يبق لنا غيرك . بعد وفاة المرحوم ابي . أما تزال غاضباً علي . لن اسألك الصفح عن غربتي عنك . فأنا اعرف ان قلبك الرحيم يغفر كل الذنوب . ولكني اسألك عن صحتك انت . أما تزال تعاني من ذلك المرض الكريه ؟ وأم ستيته ، هذه العجوز الطيبة القلب ، أما تزال تردد انني ناكر للجميل ؟ يا سامحها الله . انا عائد في هذا الاسبوع . وعلى فكرة . نسيت ان اقول انني سأجعل معي ولدي الوحيد : « نبني » . يا ليتك تراه يا جدي العزيز . انه جميل نضر كوردة منداة . سأحضره معي حتما . وسوف يلعب معك ، ويحبو على قدميه ليقبلك ، ويعانقك . نعم ! انه لكالدمية الصغيرة . شعره الاصفر المنسدل ، يا ليتك تلمسه بيدك الكريمة . سوف تحبه كثيراً . وسوف تضمه الى صدرك الحنون ، وتضعه على حجرك ، وتهدهده لينام ، كما كنت تفعل معي . ولكن هل تعرف هذه المفاجأة ؟ اننا سنحتفل بعيد ميلاده الثالث ، في بيتنا القديم . سوف تكون حفلة شائقة . وسوف تنور بيتنا الانوار الزاهية ..

سلامي اليك ، يا جدي العزيز ، وانتظروني في قطار المساء ، في يوم الاربعاء . »

كان هذا هو الخطاب الذي حمله ساعي البريد في ذلك الصباح .

أنا ما زلت اذكر صوته المتحشرج وهو ينادي : جواب من مصر .. جواب من مصر !

طرت اقفز السلالم الخشبية درجات درجات ، وكأنني احدى البطات التي تربيها في بيتنا حين تهرع جائعة الى الطعام . ونزل ساعي البريد عن حماره العجوز ، المتدلي الاذنين ، وصبية الحارة الصغار يقفزون من حوله ، ويحاولون ان يفتحوا جرابه المنتفخ ، وكأنه خزانة الاسرار . واستقبلته انفاسي المبهورة قبل يدي وطرت الى جدي وانا الوح بذراعي في الهواء . ولم انس ابداً ان التفت ورائي لألقي نظرة على صبية الحارة المذهولين ، الغيورين .

« جواب يا جدي . جواب من مصر . والقيت الخطاب في حجره ، وانحنيت عليه اريد ان اضمه وأقبل لحيته الكثة البيضاء ، كأني عائد من قلب غابة مجهولة الدروب ، ومعي صيد ثمين . وانصت الي جدي المقعد ، وانا اتلو عليه رسالة اخي ، في لغة ركيكة ، ولسان متلعثم .

« بالسلامة يا ابني . بالسلامة يعود » . وافتر ثغره العاري من الاسنان عن بسمة واسعة .

انا ما زلت ارى كل شيء امامي . في ليلة الاربعاء كنا جلوساً في غرفة الفرن . كانت امامنا مدفأة صدئة ، يلتهب فيها الرماد ، فقد كان حطبنا قليلاً . ايدينا ممدودة فوق النار كأنها تريد ان تحمي بها دماءنا — دماءنا التي تسري في عروقنا ، مثلوجة باردة . كان جدي العجوز جالساً على مقعده الذي لا يريم عنه . وكانت عيناه الضيقتان تدوران في المكان كأنها تحسداننا على مقدرتنا على الحركة . فقد كان جدي مقعداً . ربما لا يزيد على قصتي شيء اذا قلت انه كان مشلولاً . جاءه الشلل ذات صباح وهو يشرب القهوة ، فأفلت الفنجان من بين يديه وانكسر . وشل نصفه الاسفل . لا اريد ان اعيد قصة شلله ، فما ذكرتها إلا عراني حزن أليم .

وكانت أم ستيته ، مربيتي العجوز ، جالسة قبالتي ، تعالج عينيها الرامدتين بعصابتها البيضاء ، بعد ان وضعت فيها قطرات من السائل الاحمر . كان كل شيء هادئاً في بيتنا ، هدأة الانتظار . حتى قطرات المطر التي تتساقط فوق السطح كانت كأنها دقات طبول عميقة ، جوفاء . والسحب السوداء التي كانت تغطي وجه السماء ، احسسنا كأنها جاثمة بثقلها فوق رؤوسنا . كانت ليلة شتاء لا تلمع فيها نجمة حتى تنطفىء .

كانت آذاننا مرهفة لسماع صوت القطار . القطار الذي يزور قريتنا في آخر الليل فيهتز له بيتنا من اركانه ، كأنه زلزلة . لم تكن بي حاجة الى الكلام . فقد غامت عيناي في افق بعيد ، ممتد بغير حدود . ولم اطلب من « امي » ستيته ان تحكي لي اسطورة من اساطير الزمان ، كما كانت تفعل كل ليلة . وما كان يمكن للسندباد البحري ، ولا الشاطر حسن ، ولا الاميرة شهرزاد ان تشغلني عن خواطري . وما كان يمكن لأمي ستيته ان تغمض عيني لأنام على حلم جميل . فأنا انتظر مقدم اخي الكبير ، لأرى فيه وجه ابي .

سيعود اخي الليلة من بلد اسمها مصر . قالت لي ام ستيته انها بلد العجائب . قبابها عالية ، ومآذن جوامعها مضيئة في الليل كأنها شجرة تتدلى منها النجوم . وابنيتها عالية تصطدم رؤوسها بالسحاب . وقال لي جدي ان الناس فيها يسيرون على ارض لامعة — فلا تغرز القدم في الوحل — وان شوارعها كالمرايا ، يمكن للناس ان يروا فيها وجوههم ، وان الأولياء الصالحين يحمونها من غارات اعدائها الحمر ، ويقفون امام سورها العظيم وهم يسبحون بحمد الله .

لم اكد امد يدي ضارعاً وانا اصيح : « يا سيدة زينب . يا سيدنا الحسين . ارجعا الينا اخي سالماً » حتى سمعنا طرقاً على الباب . وقفزت اجري على السلم . واسرعت ام ستيته الطيبة القلب تتحسس الطريق . وحين ضمني اخي الى صدره استطعت ان المس بيدي بذلته الناعمة ، وان اشم رائحة العطر التي تفوح منه . قال لي وهو يضحك : هذا هو نبني ، ابن اخيك ؛ أليس جميلاً ؟ سلم عليه يا نبني . نعم هكذا . لقد صرت رجلا . لمَ لا تضحك ؟ انت متعب من السفر ؟ تريد ان تنام ؟ لا .. لا .. قبل ان نرى جدك ؟ من ؟ جدك العجوز ؟ أتخاف منه ؟ انه يحبك . هيا .. هيا .. اعطني يدك .. هكذا » . وصعد اخي الكبير على السلم ، والضحكات العالية تهتز معه . كان يحمل في يده حقيبة كبيرة ، فقلت لنفسي لا بد انها مملوءة بالحلوى . لن انام في هذه الليلة ! ومد جدي ذراعيه ليحتضن اخي ويقول له ، والصوت تخنقه الدموع : « بالسلامة يا ابني ، بالسلامة عدت . مالنا ومال مصر . ابق معنا . هذا هو ابنك . قربه مني . ما اجمله .. أتخاف مني ؟ آخ ! لا تشد ذقني ايها العفريت ! »

وصاح اخي وهو يرحب بخادمتنا العجوز : لن تنامي الليلة يا ام ستيته ؟ افتحي هذه الحقيبة . ماذا ؟ أتمشى ؟ لا .. أستريح .. ولكني غير متعب .. هيا نعد كل شيء معاً .. ألا تعرفين .. ولكنه عيد ميلاد نبني .. نبني العزيز .

كان اخي في هذه الليلة جم النشاط . لم يكد يجلس ليستريح ، او ليحكي لنا شيئاً عن البلد الكبير الذي عاد منه . استحال الى طاقة حية ، مندفعة ، مشبوبة . انه يجري ، ويضحك ، ويهز رأسه ، ويثرثر بكلام كثير مثل قطرات المطر التي تتساقط في الخارج سريعة متلاحقة : « ضع هذه الحلوى على المائدة . لا تأكل منها شيئاً . وأنت يا نبني ؛ اتريد ان تنام ؟ ايها

الشيطان الصغير. وهل تنام في عيد الميلاد؟ خذي هذا التفاح يا ام ستيته . نعم . ضميه الى جانب الحلوى. ماذا ؟ ولكنك ستأكلين منه الآن. وهذه الشجرة ايضاً؟ نزرعها ؟ يا لك من ساذجة . ولكنها لا تزرع . اسمها شجرة عيد الميلاد . الا تعرفين؟ حسناً . ضعيها هناك . لا تقطفي منها ورقة واحدة..اسرعي ايتها العجوز. وأنت ؟ لم لا تتحرك . هل تقف هكذا ساكناً ؟.. اتعجبك الشموع ؟.. تريد تشعلها ؟ ولكن انتظر ! سنرى كل شيء . الآن .. حالاً .. حالا .. كل عام وانتم بخير » ..

ما اغرب اخي ! اني مثل هذه الليلة الباردة من ليالي الشتاء ؟ ماذا يقول جيراننا ؟ ولكنهم نائمون . حسناً فعلوا؛ والا لضحكوا علينا . آه لو رأونا ونحن جلوس امام المائدة . لكنا اصبحنا سخرية البلد يوماً باكمله. اذ كيف توقد الشموع ولم يولد في بيتنا طفل ، ولم يتم زواج ؟

انا عهدي بالموالد ان يشترك فيها اهل بلدتي جميعاً . ففي مولد سيدنا الشيخ « دسوقي » يحق لنا ان نسهر الليل باكمله ، ونأكل الحلوى ، ونشتري عرائس المولد الحمراء . لنا نحن اطفال القرية في هذا المولد ان نتبرك بسيدنا الشيخ ، ونزور ضريحه ، ونكس السور الحديدي بايدينا ، وقد يتمرغ بعضنا على السجاد العجمي الثمين في نشوة صوفية محببة . ولنا ان نسهر حتى الصباح ، ندور في المرجيحة ، وننتقل بين الموائد الزاخرة باللحم الشهي ، ونرقص في صفوف الدراويش حتى الصباح . ولكن هذا الحفل الذي نقيمه في بيتنا ، في هذه الليلة شيء عجيب. أيكون نيني شيخاً صالحاً من الاولياء ؟ ولكن هذا شيء محال . اذ كيف يصدقه عقلي ؟.

ولم يسترح اخي الكبير حتى جلسنا الى المائدة . انني لم ازل اذكرهما تماماً . فقد فرحت في تلك الليلة ، كما لم افرح قط . اضأت الشموع بيدي . ووضعت الشجرة الجميلة في وسط المائدة ، وناولت مربيتي العجوز اكثر من قطعة من الحلوى ، ودعوت جدي الى الطعام اكثر من مرة .

ولم تزل كلمات اخي الضاحكة كانها ترن في اذني رنيناً مضنياً ، « كل سنة وانتم طيبون . كلكم . كانا . وانت يا نيني. مد يديك يا حبيبي. نعم. هكذا. ستعيش مائة عام . أليس كذلك ؟ الا يكفيك هذا ؟ اذن ستعيش مائتين . تفاحة اخرى . ولكنك لم تأكل . اعطه يا ام ستيته قطعة الجاتوه . نعم . هكذا . الآن تعال الى جانبي . ستطفيء الشموع . املأ فمك بالهواء . لا . هكذا . هيا . ستنفخ فيها واحدة واحدة . نعم . ثلاثة فقط ؟ ولكنك لم تعش اكثر من ثلاث سنين . تريد ان تكون لكل يوم شمعة ؟ ولكن هذا كثير . انت طماع. هه ! لم يبق غير واحدة . هكذا . انطفأت كلها. »

كنا جميعاً في نشوة من الفرح اسكرتنا . فأنا قد نسيت كل ما حولي . وذقت التفاح ، والكشرى ، ربما لأول مرة . ومضيت اتهم الحلوى قطعة بعد اخرى في نهم جائع . وسرحت مع خيالي لحظات وأنا اتأمل الشجرة الصغيرة التي تتوسط المائدة ، وتتدلى منها اوراق مفضضة لامعة ، كالقطن الابيض النقي وعجبت في نفسي كيف نمت هذه الشجرة ، وما لها من جذع ولا في فروعها ثمر . وسألت عقلي كيف تختلف عن شجرات الصفصاف والتوت التي طالما تسلقتها وادميت اصابعي. حتى « ام ستيتة » قد رفعت العصابة البيضاء عن عينيها الرامدتين واخذت تنظر اليها ، وتلتقط تفاحة من هنا ، وقطعة حلوى من هناك ؛ لكأن الشباب قد انتفض في عروقها ، وكأن الحياة قد بعثت من جديد في روحها .

واخي الاكبر مشغول بكل شيء ، حتى الطبيعة راح يصفها — كاذباً — بالجمال ، وبانها فرحة مع « نيني »، مع ان الليلة — والحق يقال — كانت باردة الهواء ، والوجود كله مثل زنزانة معتمة تلتمع البروق الخاطفة فوق جدرانها بين حين وحين .

كان جدي وحده حزيناً . لقد لبث ساهماً مطرقاً برأسه الى الارض ، صامتاً ، وقوراً ، مثل ابي الهول . فاذا رفع عينيه فانما ليثبتهما على وجه « نيني » السعيد ، وليتملى بذلته الزاهية ، وشعره اللامع . ثم يعود ليخفض رأسه الى الارض ، ويتشاغل بسبحته الطويلة عنا .

ما لجدي وللحزن ؟ هل يعرف الحزن طريقه الى القلوب في مثل هذه الليلة ؟ هل يا ترى قد تذكر فجأة ان ابي وامي قد ماتا منذ عهد قريب ؟ ولكنني انا ايضاً اعرف ذلك . ومع هذا فلم يشغلني الحزن عن الطعام . فعندي ان آكل حتى اشبع ، وبعدها فلتدمع عيني كما تشاء . هل تذكر وجهيهما الشاحبين وهما يصارعان الموت جنباً الى جنب ، على فراش واحد ، ونحن امامهما عاجزون عن كل حركة ؟ انا كذلك اكاد اراهما وهما يصرخان ، ويتقيآن سائلاً اصفر بلون وجهيهما . وانا ما زلت اذكر ما قاله لي الجيران وهم يعزونني: لقد صرعهما الوباء. وليس للناس حيلة في الوباء يا بني.

انا لا اشك في ان « نيني » كان يرقب جدي . فقد رأيته يشرد بخياله

وهو ينظر اليه ، ويكاد يذهب اليه ليسأله : « لماذا تبكي يا جـــدي ؟ »

هل احس جدي فجأة انه قد فقد كل شيء ؟ وان حياته لم تكن تستحق ان يحياها ؟ اكاد اقول ان جدي ، في تلك الليـــلة ، قد التفت وراءه ، ونظر بعينيه ، فلم يجد غير الفراغ . الفراغ الهائل ، الساكن ، الذي يحيطه العدم من كل جانب . هل يجيء على الانسان حين يلتفت فيه الى الماضي فلا يجد حتى آثار قدميه على الطريق ؟ لحظة يطرق المستقبل فيها ابوابنا ، ونحن نيام في الليل ، ليقول لنا : لقد نسيت اسماءكم .

ولكنني على يقين من ان جدي لو كان رجع الى ماضيه لما ملكه شعور بالحزن . انه قد جرب اكثر من حياة : اشتغل في اول حيـــاته اجيراً في مزارع الاغنياء . ثم تجول اعواماً في اسواق التجارة ومكيلته تحت ابطه حتى اصبح في يوم من الايام تاجراً بين التجـــار . وبدا له ذات يوم ان يكون حلاقاً ، ففتح صالوناً كان يتردد عليه عشرات التجار والاغنياء ، وما زلنا نعيش على صيته حتى اليوم . نعم ! لا يمكن ان يكون جدي حزيناً لأنه استرجع في ذهنه ذكرى ماضيه .

كل ما اذكره اليوم ان جدي في تلك الليلة ، كان يحدق طويلاً الى شجرة عيد الميـــلاد . وكان كثيراً ما يخيل الي كأنه يتنهد . أو كان يرى ان حياته كهذه الشجرة ؟ ولكنها كانت شجرة ذابلة الاوراق ، جافة العروق مثل اشجار الخريف . أكان يدور في خلده انه هو ايضـــاً قد صار في خريف العمر ؟

لم تمنه ليلة عيد الميلاد على خير . فقد اطال جدي التحديق الى الشجرة الملعونة ، واضطربت انفاسه الواهنة في صدره ، حتى رأيت دمعتين تسقطان على خديه وتختفيان في شعرات لحيته . ولم يلبث ان انفجر باكيـــاً وهو ينشج نشيجاً .

اما اخي فترك ما في يديه واسرع اليه : « ماذا.... ما هذا يا جدي ؟ أفي هذه الليلة تبكي ؟... ولكن ماذا حدث ؟.. ماذا حدث يا ام ستيتة ؟ ماذا ؟ الا تعرفين ..ولكن ما الذي يبكيه ... » وجرى « نبي » ذو العينين الواسعتين اليه وارتمى على صدره وهو يعانقه : « لماذا تبكي يا جدي » ؟

اما جدي فقد اشار علينا بان نبعده عن ذلك المكان .

كل ما استطعت ان اتبينه من كلامه المتقطع ، المختنق بالدمع : « ابعدوني .. ابعدوني .. » ثم يقول وهو يمر بيديـــه الراعشتين على رأس «نبي» : « لا تحزن يا نبي ..معلهش.. يا نبي...ني . »

وتحامل جدي علينـــا ، واسند ذراعيه المنهوكتين على أكتافنـــا ، ونحن نسير به الى فراشه . كان اخي لا يفتأ يردد : اهذا ممكن ؟ اهذا ممكن ؟ وكان « نبي » مشغولاً بدموع الشيخ العجوز الذي يضمـــه الى صدره ويردد في صوتـــه المتقطع : « ابعدوني ، ابعدوني » واسرع اخي الى « نبي » فانتشله من بـــين ذراعيه واشار الى ام ستيتة ، التي وقفت مذهولة تفتح عينيهـــا الرامدتين في صعوبة ، بان تحمله بعيداً . ما كان لهذا الصغير العزيز ان يرى الجد وهو يتحطم. ما كان له ان يفتح عينيه الزرقاوين على شيخ فيه بقية حياة تذوي وتنطفيء . والتففنـــا ، انا واخي ، حول جدي العجوز ، نكفكف من دموعه ، ونهديء من ثورته التي انفجرت على غير انتظار .

لم نكن ندري ماذا نفعل . فقد كنا نراه يبكي امام اعيننا ، بلا سبب . وارتميت على الحصيرة البالية امام قدميه . وشردت عيناي في السقف . ورحت أعد قطرات المطر .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. اما اخي فقد تمدد الى جانبه ، يربت على كتفيه ويهدهد من حزنه ، ويميل على اذنيه بكلام كثير

وكان الصمت يلفنا حين رأينا نبي يندفع الى الحجرة وهو يجري ، كأنه يخاف ان يرده عنا احد . وام ستيتة العجوز تجري وراءه محاولة ان تمسك به . « جدي .. جدي » كانت صيحته تخرج مع انفاسه المبهورة ، متقطعة ، مكتومة ، كالأنين . وكان يمد يديه نحونا ، ويجري حتى لينكفيء عـــلى وجهه . « خذ يا جدي .. الشجرة أهيه .. هي لك .. الشجرة لك .. ده عيد ميلادك .. عيدك انت .. لا تحزن يا جدي.. الليلة ليلة ميلادك ..انت.. يا جدي .. خدها معك .. فان الدنيا تمطر .. »

ولم ندر ماذا نصنع . اسرع اليه ابوه يحمله بين ذراعيه ، وخرج به من الحجرة ، وهو يقبله ، ويكاد ينشج بالبكاء . واما جدي العجوز فقد لمعت عيناه الضيقتان التماعاً غريباً ، ومد يده المرتعشة فقبض على الشجرة . وضمها اليه ، الى صدره ، وهو يقبلها

وفي الصباح ، كان جدي ما يزال راقداً على فراشه . ولكنني حين اقتربت منه ، ووضعت يدي على صدره ، لم اجد فيه نفساً يتحرك

ومررت بيدي الخائفتين عـــلى اطرافه المثلوجة ببرودة الموت . وكانت شجرة عيد الميلاد ما تزال في يديه .

وكان يضمها الى صدره ضماً شديداً .

القاهرة **عبد الغفار مكاوي**

صدر كتاب الموسم
دقائق العربية
لمؤلفه إمام اللغة الأكبر المغفور له
امين بك آل ناصر الدين
وهو الكتاب الجامع بين دفتيه فرائد اللغة ونفائسها
والعاصم حملة الاقلام من مزالق الخطإ اللغوي
الثمن : ٦ ل . ل .
يطلب من مكتبة المعارف في بيروت ومن سائر المكتبات